منى سلامة

مِن وراء حجاب

رواية

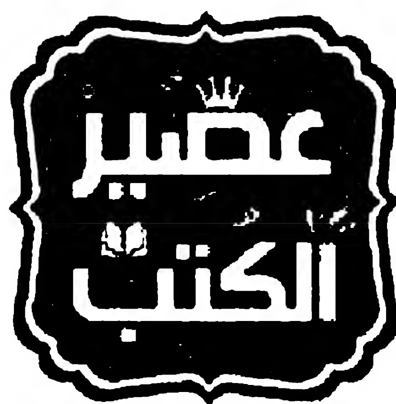
عصير الكتب

من وراء حجاب

من وراء حجاب

رواية

منى سلامة



إن كنت أيها القارئ تتساءل، هل هذه الرواية التي بين يديك الآن حقيقة أم خيالية؟

فدعني أهمس لك:

الحقيقة خيال إن أنكرتها..
والخيال حقيقة إن صدقته.

المؤلفة

إهــــداء

إلى من علمتني أن للقلب عيون

إلى "يارا ربيع"

(١)

الكتاب فيه حبر قاتل

- يجب على عقلاء هذا البلد أن ينبذوا الفرقة، وأن يكونوا يدًا بيد في مواجهة تلك الكارثة الإنسانية. ما يحدث بالمحافظة الشمالية الآن سيتكرر في باقي المحافظات، ولن تلبث أن تحرق نيران الحرب الأهلية كل شبر في أرض بلادنا. أهلنا يبيد بعضهم بعضًا؛ فماذا أنتم فاعلون؟!

أطفأ مندوب شركة الشحن مذياع السيارة، دون أن ينتظر سماع اقتراحات ضيف البرنامج للقضية المطروحة. صفع مقود السيارة وهو يطلق سبة أتبعها بلعنة، لا يعرف تحديدًا لمن يوجهها، لكنه على يقين أن هناك من يستحقها. ترجَّل من السيارة حاملًا طردًا صغيرًا مغلفًا بظرف بلاستيكي يحمل شعارًا بارزًا لشركة الشحن التي يعمل بها. ألقى نظرة مطوَّلة على البناية الشاهقة قبل أن يخطو بخطوات حثيثة نحو حارسها الذي ما إن رآه حتى تحفَّزت قسماته، وترك مقعده ليلاقيه ويغلظ له القول:

- أفندم، أنت مرة أخرى!

حكَّت قطة سوداء جسدها الهزيل في بنطاله طالبة للدفء، فركلها حتى ماءت بضعف، ابتعدت وهي تجر ذيل الحسرة. قال مندوب شركة الشحن بحدة لم يبذل جهدًا في إخفائها:

- وكأنني آتي إلى هنا برغبتي، اسمع يا هذا لقد مررت بيوم أسود من قرن الخروب فابتعد عن طريقي.

لمعت شارة الحارس المثبتة فوق قميصه والتي تحمل اسمه بخط واضح، أجابه بتحدٍ:

- على جثتي، لن أسمح لك بدخول البناية قبل أن يأذن لك أحد سكانها.

لا أريد مشاكل معهم.

تفل المندوب إلى يساره، أغلق سحاب معطفه حتى توارت خلفه تفاحة آدم. قال بنبرة مرتفعة بعض الشيء:

- حسنًا، اتصل بساكن الشقة أربع عشرة وأخبره أنني هنا، كما طلب.

شدد على حروف "كما طلب" ومنح الحارس نظرة تشي بنفاد صبره. تقهقر الحارس عدة خطوات إلى الوراء دون أن يحيد بنظراته عن مندوب شركة الشحن، ثم ضغط زرًا يحمل الرقم الرابع عشر في جهاز الاتصال الداخلي. التفت المندوب يمنة ويسرة في تململ واضح، دعس بحذائه صرصورًا ظن أنه يبحث عن مأوى يقيه الرياح العاصفة لتلك الليلة. ثم علا شفتيه شبح ابتسامة وهو يفكر كيف أنه أسدى معروفًا لهذا الصرصور، فهو لن يعاني من البرد أو الجوع في هذا البلد بعد الآن. ليت خيار إنهاء حياته بمثل سهولة إنهاء حيـاة هذا الصرصور. هكذا فكّر.

عاد الحارس ليقول بنبرة حاسمة:

- كما حدث بالأمس، والليلة قبل الأمس، لم يطلب ساكن الشقة أربع عشرة أي طرد. ولا ينتظر أي مندوبين الليلة ولا في أي ليلة.

اشتعلت عينا المندوب بالغضب وكوّر قبضتيه هاتفًا:

- هل يمزح هذا الرجل؟! لقد اتصل اليوم بالشركة التي أعمل بها وأصر على استلام الطرد في منزله، بل والأدهى من ذلك أنه أنكر قدومي إلى هنا مرتين.

ثم أضاف بنبرة مُهددة:

- لن أرحل من هنا قبل أن أتحدث إليه. يظن مديري أنني أتقاعس عن الذهاب إلى هذا العميل، لن أسمح لشيء كهذا أن يتسبب في فقداني لوظيفتي.

تهدل كتفا الحارس وهو ينظر إلى المندوب في رجاء، وقال:

- أرجوك لا تقطع عيشي. ساكن الشقة أربع عشرة هو صاحب تلك البناية. عجوز غليظ القلب لا يسلم أحد من أذاه. يعيش بمفرده منذ

أن تسلمت العمل، ولا يستقبل أي زوار.

- لست زائرًا! أرغب فقط في تسليم هذا الطرد اللعين ثم أرحل من هنا إلى غير رجعة.

هزَّ الحارس رأسه نفيًا وقال مهددًا:

- سيطردني إن سمحت لك بالصعود. أرجوك ارحل من هنا وإلا ستضطرني إلى استخدام العنف معك.

أطبق فمه، وجز أسنانه حتى صدر عنها صوتًا أزعجه هو نفسه. اقترب من سيارة شركته ببطء، فتح بابها وهو يجيل نظره بغيظ في شرفات الطوابق العليا. احتل مقعد السائق وأدار مفتاح السيارة، لكنه نقل قدمه إلى المكابح بغتة عندما رأى الحارس مُقبلًا نحوه. ما إن توقف عند النافذة حتى فتح الباب ليقول له:

- اسمع، بإمكانك الانتظار حتى تنتهي ورديتي، أي بعد ساعة ونصف من الآن، ثم تدخل في وردية زميلي، قل له أنك ستصعد إلى مدام "إنجي" في الشقة رقم اثنين وعشرين لتنزه كلبها.

هز المندوب رأسه شاكرًا، ثم سأله:

- لماذا تساعدني؟

مط الحارس شفتيه قائلًا:

- لأنني أكره ما يفعله هذا العجوز البغيض في الآخرين، ويسرني دائمًا أن أراه منزعجًا.

ثم أضاف بنظرة لا تحتاج إلى تفسير:

- ولأنني أثق أنك ستُقدِّر هذا المعروف.

دس المندوب يده في جيب بنطاله وهو لا يزال يرمق الحارس بنظرة مطولة، أخرج ورقة من فئة العشرين جنيهًا، وضع فوقها ما تبقى من علبة سجائره، ودون كلمة مد يده ليضع "ثمن المعروف" في جيب الحارس.

انصرف الحارس، أغلق المندوب باب السيارة وأطفأ محركها. ألقى نظرة سريعة على ساعته، ثم انتظر.



عاد المندوب بذاكرته إلى ثلاثة أيام مضت، عندما اصطدمت عيناه في ممر شركة الشحن بوجه "مالك سراج"، زوج أخته الذي يبغضه كثيرًا، ذلك المتعجرف الثري الذي لوَّث سمعته، وسد أمامه كل سبل الرزق، ولم يكتف بذلك بل قطع كل صلة بينهما، كل هذا بسبب خطأ صغير، زلة سرقة اقترفها منذ بضع سنوات، ولا يزال عقابها ساريًا حتى الآن.

ظن في البداية أن "مالك سراج" قدِم إلى الشركة عندما عرف أنه يعمل بها؛ ليقطع رزقه بتشويه صورته أمام مديره، لكنه وجده بدلًا من ذلك يُسلم أحد زملائه طردًا ويُصر بشدة على تسليمه في أقرب وقت، عندها استبد به الفضول وطلب من زميله أن يتولى هو أمر تسليم هذا الطرد، رغم أنه لا يقع في حدود المنطقة الجغرافية التي حددتها له الشركة.

لا يدري لمَ فعل هذا، لعله الفضول الذي بثه بداخله وجه "مالك سراج" المضطرب، وعيناه الزائغتان اللتان لم تنتبها له عندما دنا منه أثناء خروجه من الشركة، كان متشددًا كثيرًا في الاهتمام بتسليم هذا الطرد، حتى إنه نقد زميله بقشيشًا مُعتبرًا. ثم ازداد الفضول خلال اليومين الماضيين حتى بلغ ذروته عندما رفض المرسل إليه تسلم الطرد!

ألقى نظرة على الطرد القابع في المقعد المجاور، وقد استبدت به الرغبة في أن يفتحه ويكشف عما حواه، لكنه خشي أن يشتكي المستلم لمديره فيفقد بذلك وظيفته.

وظل السؤال يُلح على رأسه، "مالك سراج" زوج أخته المتشدق بالفضيلة هل تورط أخيرًا في عمل غير مشروع؟!



اصطدمت عيناه بملامح غليظة، ورأس يشتعل شيبًا، تنحنح قائلًا وهو يمد يده بالطرد:

- "عصام عبد الحميد" مندوب شركة "سبيد" للشحن، معي طرد باسم حضرتك يا فندم.

لوّح الأشيب بذراعيه كاملة وهو يهتف ثائرًا:

- من سمح لك بدخول البناية؟! كلب الحراسة الذي بالأسفل سألقنه درسًا لن ينساه.

تطاير الشرر من عين المندوب "عصام"، ودفع باب الشقة أربع عشرة بقبضة قوية فتقهقر العجوز على أثر اصطدامه بالباب. تقافز السباب من فم العجوز، بيد أن الخوف احتل مكانًا بارزًا داخل عينيه المحاطتين بأمواج من التجاعيد. هتف "عصام" مُعنفًا:

- وعزة جلال الله تتطاير الشياطين أمام وجهي الآن، فلتستلم طردك المشؤوم وتوقع لي على وصل الاستلام وإلا لن أكون مهذبًا بما يكفي لأراعي سنك يا جدو.

- لا أعرف كيف توظف الشركات شابًا غبيًا مثلك، أخبرت الحارس اليوم وأمس وأول أمس أنني لا أنتظر طردًا.

دس "عصام" الطرد في يد العجوز، وبيده الأخرى أعطاه الإيصال والقلم. استعاد وجه العجوز أمارات العناد وهو يقول بتحدٍ صارخ:

- لن أوقع قبل أن أفتح الطرد.

- يا صبر أيوب.

لأول مرة منذ أن عمل "عصام" في الشركة خالف القانون المتعلق بتوقيع العميل قبل تسليم الطرد. طلب العجوز وافق بشدة رغبته في معرفة محتوى هذا الطرد الذي أولاه "مالك سراج" كل هذا الاهتمام. راقب المندوب الشاب يدا العجوز تمزق الطرد ليخرج من أحشائها علبة صغيرة تخفي ظرفًا ورقيًا، تركه يقرأ الكلمات المدونة فوقه، ثم مد يده مرة أخرى بالإيصال والقلم، لكنه فوجئ بالعجوز يستشيط غضبًا وهو يهتف به:

- حمار، أنت حمار ومن عمل على تشغيلك في الشركة "أحمر" منك.

ثم لوح بالظرف أمام عينيه ليقرأ فوقه هذه الكلمات:

"للأهمية: يُسلم شخصيًا إلى دكتور "أكرم سراج" ساكن الشقة ثلاث عشرة"

افترشت الحيرة وجه "عصام" هنيهة، قال:

- وهل أشم على ظهر يدي، الاسم والعنوان المدونان على الطرد من الخارج يخصوك أنت، ويمكنك أن...

ألقى العجوز الطرد في وجه "عصام" وصفع الباب بعنف كادت تتصدع

له الجدران. التفت "عصام" إلى الرقم ثلاث عشرة الساكن ببراءة فوق لافتة ذهبية صغيرة تحتل منتصف الباب المقابل لشقة العجوز. ضغط الجرس وتأهب لخوض معركة كلامية أخرى مع "أكرم سراج"، تُرى هل يتذكره؟ ولماذا بالأساس يرسل "مالك" لأخيه طردًا وبهذا الشكل الغريب؟! تُرى ماذا يخفي هذان الاثنان؟! انفتح الباب ليكشف عن امرأة أربعينية في مثل عمره، نفض عن وجهه أمارات الغضب، تنحنح قائلًا:

- "عصام عبد الحميد" مندوب شركة "سبيد" للشحن، معي طرد باسم دكتور "أكرم سراج" يا فندم.

استقرت أنظاره على طفلة تراقبه من خلف رداء المرأة، مستديرة الوجه، بيضاء، تلطخ فمها بآثار قطعة شيكولاتة تفرمها بين كفيها. لها نفس عيني المرأة العسليتين الواسعتين. ذكَّره جمالها وبراءة قسماتها بـ"جَنَّة"، طفلته التي لم ينجبها قط، إذ حال مرتبه الذي يكفيه بالكاد دون أن يتقدم لأمها بطلب زواج!

أقبل صوبه رجل اختلط الليل في رأسه بلون الفضة، وهتف بالمرأة والطفلة ليبتعدا عن الباب، لائمًا إياها بحدة أن فتحت الباب بنفسها لهذا الغريب والذي قد يكون لصًا أو قاتلًا أو كلاهما معًا. أطلق المندوب زفرة هادرة، آخر ما ينقصه الآن أن يستمع إلى ترهات رجل غيور مصاب بالرهاب!

- من أنت؟!

لم يتذكره إذًا، وبالكاد تذكر "عصام" ملامح الرجل الذي لم يره سوى مرة واحدة في حفل زفاف أخته منذ ست عشرة سنة. طحن "عصام" أسنانه بعضها ببعض، تسارعت الكلمات وهي تتدفق كالشـــــلال من بين

شفتيه:

- "عصام عبد الحميد" مندوب شركة "سبيد" للشحن، معي طرد باسمك يا دكتور، أرجوك وقع لي على هذا الإيصال لأتصرف، فلـــدي المزيد من الطرود لأسلمها لأصحابها.

- أي طرد؟! الظرف ممزق!

حكَّ "عصام" شامة بحجم عقلة الإصبع تعلو حاجبه الأيسر، ثم أطلق زفرة طويلة قبل أن يبدأ في شرح القصة التي أدت إلى تمزيق الظرف، بدءًا من أول أمس عندما قدم للبناية ليسلم الطرد للعجوز الذي رفض استلامه ومنع الحارس من أن يسمح له بصعود البناية، انتهاء بتمزيق الطرد ليجد بداخله ظرفًا ورقيًا يحمل تلك العبارة.

لم يخف على "عصام" توتر "أكرم سراج" وهو يستلم منه الظرف ويحاول فضه، إلا أن "عصام" عاجله بالإيصال ليوقع أولًا.

عبث "أكرم سراج" بأصابعه في شعره الأشعث فأصبح شبيهًا بلوحات أينشتاين. أخرج من الظرف خطابًا مطويًا بعناية. ضاقت عيناه، نبت فوق جبينه تجعيدة تلو الأخرى حتى تغضَّن بالكامل، تسارعت أنفاسه بينما يقرأ تلك الكلمات، وتشاركه في قراءتها دون أن ينتبه عيون "عصام" المتلهفة:

"أكرم، تعرف جيدًا أنهم لن يتركوك وشأنك، أرجوك لا تضيع مجهود السنين سدى، أرسل لي الكتاب مُلحقًا بأوراقك لأخفيهم عن أعينهم، سأغادر البلاد فور تسلمي إياهم بالطريقة نفسها التي وصلك بها هذا الطرد، لا ترسله إلى عنوان منزلي، ذلك المقهى الذي نتقابل عنده دائمًا، أرسله إلى هناك وأنا سأستلمه بطريقتي. أكرم، ثق بي كما اعتدت أن تفعل دائمًا. ولا تستخدم هاتفك أبدًا".

أي مؤامرة يحيكها هذان الأخوان؟! مؤكد أن لهذين الاثنين عملًا غير مشروع يجري في السر، وأخيرًا اتضح أن لـ"مالك سراج" زلَّة مثله، أو لعلها زلات. التفتَّ "عصام" على أعقابه مغادرًا ورأسه تمتلئ بكافة الاحتمالات. دسَّ جسده النحيل في رحاب المصعد، لكن كف "أكرم" حالت دون إغلاقه. صوَّب "عصام" نظرات الدهشة إليه، بدا على "أكرم" التردد وهو يقول:

- انتظر من فضلك، هناك طرد أريد إرساله.

- يا صبر أيوب.

- ماذا قلت؟!

- لا شيء، لكن أسرع فليس أمامي الليل كله.

انتظر أكثر مما ينبغي، وعندما أوشك على أن يناديه ليتعجله ظهر "أكرم" أخيرًا، أكثر ارتباكًا وأقل راحة:

- تفضل، أريد إرسال الكتاب والأوراق إلى هذا العنوان.

تناول "عصام" الورقة المدون فوقها البيانات، وباليد الأخرى حمل الكتاب، لاحظ "عصام" أن له غلافًا أسود اللون ذو ملمس غريب أرسل القشعريرة على طول عموده الفقري، صفحاته سميكة جدًا، أكثر سماكة من أي كتاب لمسه من قبل، حتى وإن كان غير معتاد على لمس الكثير من الكتب إلا على فترات طويلة متباعدة.

ملأ "عصام" بيانات إيصال الطرد، ومنح نسخة من الإيصال إلى "أكرم" وهو يخبره بتكلفة الشحن، نقده "أكرم" ضعف ما طلب، ورافق كلماته اعتذار مهذب عما لاقاه من معاناة في توصيل الطرد الخاص به، ثم وصَّاه بضرورة تسليم الطرد الجديد في عجالة.

دوى صوت تحطيم فتسارع الرجلان نحو مصدره، وقف "عصام" في الردهة مشرئب العنق بفضول، أسرع "أكرم" نحو طفلته التي تتوسط كسرات زجاج كانت منذ لحظات قليلة مزهرية كبيرة مُذهَّبة، لها طابع أثري تزين أحد الأركان. حملها والدها وعانقها، أعطاها نسخته من الإيصال لتلهو به فتوقفت عن البكاء وهي تكوره في يدها وتنقله من كف إلى آخر.

دفع "أكرم" بالطفلة إلى أمها التي أقبلت عليها بلهفة وجزع، ثم أرسل إلى "عصام" نظرات حانقة لتخطيه عتبة الباب، دار "عصام" على عقبيه واستقل المصعد إلى الأسفل، خرج من البناية، اقترب من سيارة شركة الشحن، أدار المفتاح في الباب ثم...

صوت تحطم قوي جعله يجفل ويغلق عينيه لبرهة، ويا ليته ما فتحهما

إذ صدمه مرأى جسد "أكرم سراج" المحطم ممتزجًا بالزجاج الأمامي لسيارة عمله! رفع أنظاره الفزعة إلى الأعلى حيث طالعه وجه زوجة "أكرم" حاملة طفلته وصرخاتهما تشق سكون الليل، وتمتزج بظلمته.

نظرة واحدة إلى وجه الطفلة جاحظة العينين جعله على ثقة من شيء واحد.. هذا الحادث سيترك في الطفلة المسكينة أثرًا لن يزول أبدًا!!

فرَّ إلى بيته، وتلحَّف في مخدعه لا يسمع سوى صوت لهاثه، ولا يشعر سوى بضربات قلبه تكاد تحطم أسوار ضلوعه، مزَّق الطرد وقرأ بعشوائية بضعة أسطر من الأوراق التي لم يفهم منها شيئًا، تركها وفتح الكتاب، فلم يجد سوى صفحات خالية من الحبر إلا الصفحة الأخيرة، قرأ فيها:

"الإرث في أمان، استودعته ذريتي من بعدي، أنت حي الآن!"

بعثت العبارة بالنفور إلى صدره، ترك الكتاب من يده وكأنه حيَّة تَسعى.. وأخذ يفكر أي شؤم جلبه هذا الكتاب على صاحبه. عملت أفلام الرعب التي يشاهدها عملها في رأسه وأخذ يتساءل هل من الممكن أن يدفع هذا الكتاب بمن يقرأه إلى حافة الموت؟!



(٢)

بعد ثلاثة عشر عامًا.

(ماهر)

أرغمت عيني اليسرى على أن تباعد أهداب جفنها دون أن تُوقظ أختها التي تجاورها. أسقطتْ أصابعي كوبًا زجاجيًا من فوق الكومود وهي تأخذ طريقها إلى هاتفي المحمول الذي يؤدي دوره الصباحي في الصراخ. أعلم أنه سيعاود الصراخ مرة أخرى بعد خمس دقائق، وهي للأسف الخمس الأخيرة في الخطة المبرمجة لإيقاظي من النوم.

كاد الحلم أن يفتح لي أبوابه عندما هدر الهاتف اللعين في تمام التاسعة بسيمفونية مزعجة اخترتها بعناية، ليعلن انتهاء المباراة لصالحه.

جررت جسدي من دفء الفراش، وجردته من الثياب. طالعني في مرآة الحمام وجه ذكّرني أنني نسيت شراء ماكينة حلاقة جديدة أثناء عودتي للبيت بالأمس، ليتني لم أتخلص من القديمة على الأقل.

التاسعة وست دقائق.

طبعت قدماي بصمتهما بالماء فوق أرض الغرفة بينما أدندن بكلمات غير مفهومة. أغنية بلا معنى بقيت عالقة في ذاكرتي من رواسب الطفولة! تبلل الهاتف بقطرات هاربة من شعري وأنا أجري اتصالًا بعجالة. ما إن أتاني الصوت الأنثوي من الجهة الأخرى حتى هتفتُ:

- كل شيء على ما يرام، أليس كذلك؟!

لم يكن سؤالًا، بقدر ما كان تحذيرًا، فأنا لن أقبل اليوم بشيء ليس على ما يرام.

- مستر "ماهر" لا تقلق، كل شيء كما طلبت.

استدعيتُ نبرة حازمة واضعًا الهاتف بين رأسي وكتفي الأيسر لأتمكن من ارتداء قميص أبيض:

- "نيفين"، لن أقبل أي أخطاء اليوم.

- أعلم ذلك مستر "ماهر".

أنهيتُ الاتصال بلمسَة دون تحية. بدأ عقلي في تخيل كل أنواع العقوبات التي سأفرضها على "نيفين" و"جميل" إن تسببا في خطأ واحد مهما كان صغيرًا. فتحت الدولاب لأفاضل بين ساعة طراز "مونت بلانك" كلاسيكية سوداء بأحرف رومانية رأيت مثيلتها في يد لاعب خفة، وأخرى لـ"رولكس" سمعت أنها كانت خيار أحد الكتاب الكبار حيث طوَّقت معصمه حتى يوم وفاته. حملت كل واحدة في يد ثم اخترت الأغلى ثمنًا.

التاسعة وثلاث عشرة دقيقة.

فتحت باب الغرفة مسرعًا، اصطدمت به قدمي، فبَدا ذلك كعلامة تحذير. لم أعثر في المبرد إلا على بيضتين إحداهما مبقور بطنها وتفترش بقعة كبيرة من المُح أسفلها، وعلبة لبن مبستر أخذت منه رشفة ثم أفرغتها على الفور في الحوض. تمضمضت لأُزيل عن فمي مذاقها الذي ذكَّرني برائحة جسد "تالا" عندما تتباعد فترات استحمامها.

اصطدمت نُدف ثلجية صغيرة بنافذة غرفة المعيشة، إنها إحدى المرات القليلة التي يهب فيها رب السماء لبلادنا ثلجًا. فتحتُ مصراع النافذة، بسطتُ يدي والتقطتُ واحدة، داعبتها بين أناملي وأنا أتساءل لماذا لا تُمطر سماء الأرض ألماسًا كما تفعل السماء فوق كوكب زُحل؟!

عندئذ كانت ستُحل كل مشاكلي المادية التي تحاصرني كأمواج بحر هائج، يصر على إغراقي في دوامته.

طرقتُ باب إحدى الغرف عدة مرات متتالية مناديًا:

- هل أنتِ مستيقظة؟!

ولما ظلَّ الباب على سكونه التقطتُ هاتفي وكتبتُ بأصابع تتسابق لتلامس أحرف الأبجدية العربية:

- سأعود متأخرًا. هاتفيني إن احتجتِ لشيء، لا تنسي الاتصال بـ"أم تهاني". البيت قذر جدًا.

تمثَّل التحذير الثاني في نظارتي الشمسية الجديدة التي فشلت في العثور عليها. الجو متقلب كثيرًا هذه الأيام. ما إن يتوقف المطر حتى تطل الشمس بحرارتها وكأنها تتعمد إغاظتنا. عدت إلى الحمام فتبلل شرابي بماء الاستحمام. إنذار ثالث بيوم عصيب!

صففت شعري، وهربت بعيني بعيدًا عن شعيرات بيضاء بدأت في فرض حصارها فوق رأسي، تزداد بمعدل مرعب لا يتناسب وسنوات عمري الست والعشرين. وكأنها تعمل في سرية طوال الوقت على تجنيد ما يجاورها من شعيرات سوداء خائنة لوطنها!

أبدلت الشراب في عجالة ولم أنس أن أسقط فوق جسدي زخات من "جيفنشي" بنغماته الذكورية الحادة.

صافح أرض الشارع للمرة الأولى حذاء جلدي أسود، تقليد متقن لماركة مشهورة لم أندم على صفقة شرائه بربع ثمن الحذاء الأصلي، لكن قبل أن أركب سيارتي كان قد اتسخ بالوحل الممتد على طول الشارع الذي فاضت بالوعاته بما في جوفها. كادت دجاجة هاربة من المحل المقابل أن تختبئ بين أقدامي هربًا من مصيرها المحتوم. فركلتها بعيدًا وأنا أردد بغيظ دعائي الأثير "اللهم تُب علي من هذا المكان".

أصبحت خلف مقود سيارتي في تمام التاسعة والنصف بتوقيت الهاتف المحمول، والتاسعة تمامًا بتوقيت الساعة "المونت بلانك"!



طرقت "نيفين" الباب مرتين ثم دلفت دون أن تنتظر أن أسمح لها.

استرقتُ النظر إلى بطاقة الذاكرة التي وضعتها أمامي فوق المكتب، ثم عدتُ للانهماك في تمرير ماكينة الحلاقة فوق وجهي.

- مستر "ماهر" هل أحضر لك شيئًا تشربه قبل الاجتماع؟

مسحت صابون الحلاقة عن وجهي بمنشفة صغيرة ثم أخفيتها في أحد أدراج المكتب. طالعتُ بيانات بطاقة الذاكرة باستخدام حاسوبي دون أن أنظر إليها. قلتُ:

- هل وصل "جميل"؟

- في الطريق يافندم.

رفعت وجهي الغاضب إليها، فسارعتْ بالمغادرة وهي تتمتم باضطراب:

- سأتصل به الآن.

- "نيفين".

- أفندم مستر "ماهر".

- لا تضعي هذا العطر الرخيص مرة أخرى.

لم أولي اهتمامي للارتباك الذي نطقت به قسماتها. عدتُ إلى مطالعة البيانات، قالت قبل أن تغلق الباب:

- طبعًا، أعتذر مستر "ماهر".

لم أكن لأحتمل أي خطأ اليوم، الأزمة المالية التي تمر بها شركتي لا أمل لي في النجاة منها إلا بهذا الاجتماع مع ممثلي شركة "بيانكو". يجب أن أفوز بعقد العمل معهم، هذا هو أملي الوحيد لأنقذ نفسي من الموت، أو مما هو أبشع من الموت.

عشر دقائق مرت قبل أن تطرق "نيفين" الباب مرة أخرى، لم تكن بمفردها هذه المرة. انتفضت لأستقبل في حرارة الزائرين الوافدين من شركة "بيانكو"، ثم أشرت إلى طاولة الاجتماعات الصغيرة التي تتوسط الغرفة. احتللنا ثلاثة مقاعد، بينما وقفت "نيفين" بجواري متأهبة لتدوين ملاحظاتي أثناء الاجتماع وبيدها جهازها اللوحي. عاجلني أحد الرجلين فيما

يشبه الاعتذار:

- علقنا في زحمة السير.

أطلقت ضحكة وأنا أقول بمرح مفتعل:

- ومن منا لا يعلق بها في هذا البلد. لذلك أحرص دائمًا على ضبط ساعتي مقدمة ثلاثين دقيقة.

ارتفع حاجب أشيَبهما وقال في وقار:

- أراك تهتم كثيرًا بالحفاظ على المواعيد يا باشمهندس "ماهر".

قلت بثقة مدروسة وأنا أبسط كفي أمام وجهي:

- بالطبع، فكل شيء متعلق بدقة المواعيد، وشعاري دائمًا "ساعة منضبطة تساوي عمل احترافي".

شعرت بالثقة إذ رأيت أمارات الإعجاب على وجه أحدهما، وابتسامة واسعة على شفتي الآخر. وقعت أنظار أحدهما على أصابع يدي اليمنى، وبالتحديد على أصبعي البنصر والخنصر الضامرين والملتحمين معًا منذ يوم ولادتي، فأصابني حرج يلازمني كلما تسمرتْ أنظار الناس على كفي، حرج لم أتخلص منه قط. فضممت أصابعي في قبضة لأواري تشوهها.

كنت أعرف بالخبرة أن تمَلُّك زمام السيطرة على الاجتماع يكون من خلال توجيه الأسئلة إلى العميل، وأفضلها هي الأسئلة المفتوحة، التي لا يتم الإجابة عليها بكلمة قاطعة، لأنها تدفعه إلى التحدث أكثر، والإفصاح عن نفسه.

ألقيت عليهما سؤالي الأول، وتعمدت أن يكون مثيرًا للقلق لأستثيرهما وأحوز على جل انتباههما، بينما أستدير لأرمق "نيفين" بنظرة فهمَتها على الفور، فغادرت المكتب وهي تضرب أزرار هاتفها الخلوي. رسمتُ ابتسامة المنصت فوق وجهي بينما داخلي يغلي بالغضب وأنا أتساءل في أي مصيبة اختفى هذا الـ"جميل".



قرَّب "الحاوي" بالونة صفراء من شمعة مشتعلة وأمرها أن تنفجر فانفجرت من فورها! أعاد الكرة مع بالونة حمراء وأمرها ألا تنفجر، فبقيت على حالها!

اتسعت أعين الصغار في انبهار، وتقافزت الأسئلة على ألسنتهم: كيف تطيعك البالونات يا عمو "الحاوي"؟!

هتف أحد الصغار في نباهة:

- لأن البالونة الأولى صفراء، والثانية حمراء. الأصفر ينفجر والأحمر لا ينفجر.

كرر "الحاوي" لعبته مع بالونة صفراء وأمرها ألا تنفجر فلم تنفجر! امتقع وجه الصبي عندما ضحك منه الأطفال، وماتت فوق شفتيه بسمة الثقة لتحل محلها أخرى حائرة.

مر "الحاوي" على الأطفال حاملًا قبعة مقلوبة. وقال بلطف لا يخلو من الحزم:

- انتهى العرض أيها الصغار، عمو "الحاوي" يحتاج إلى الذهاب إلى منزله ليرتاح. لكنه سيعود إليكم في الغد بألعاب جديدة.

وضع كل طفل مالًا في قبعة "الحاوي". ومن لم يجد بحوزته مالًا هرول إلى والدته الجالسة على مقعد قريب في الحديقة. وبكى وترجاها أن تعطيه مالًا ليضعه في قبعة عمو "الحاوي" أسوة بباقي الأطفال.

راقبتُ المشهد من نافذة مكتبي التي تطل على حديقة اعتاد "الحاوي" على أن يقيم فيها عرضه اليومي. تذكرتُ كيف كاد الفضول أن يفتك بي وأنا أتابع كل يوم العرض نفسه دون أن أجد سببًا واحدًا منطقيًا ليطيع البالون أمر "الحاوي"! حتى ضقت ذرعًا بهذا اللغز وتوجهت إليه بالسؤال. تحدَّث يومها عن سر المهنة الذي لا يصح أن يبوح به لأحد، وأن رأس ماله في الحياة هو ما يجيد من ألعاب خفة. لكن بالطبع تلك الخطبة العصماء انتهت عندما دسست مائة جنية في جيب معطفه الأسود. فعدَّل قبعته كأرستقراطي من العصور الوسطى، ونظر يمنة ويسرة ليتأكد أن السر لن يخرج عن اثنين، ثم كشف لي خدعته:

- بعض البالونات أملأها بالماء قبل نفخها، فإذا قربتها من اللهب لا تنفجر لأن الحرارة تنتقل من البالون المطاطي إلى الماء فيعمل على تبريد البالون ويحفظه من الانفجار. أما البالون الممتلئ فقط بالهواء فإنه يسخن بشدة إذا اقترب من اللهب وينفجر على الفور.

ثم ضحك بملء فمه، وغمز بعين يُمنى تعاني حورًا. ثم قال:

- ألم يُعلموك الفيزياء في المدرسة؟

فغادرته يومها وأنا أضرب كفًا بكف، هل تحوَّل العِلم إلى ألعاب حواة؟!

قطع تأملي صوت طرقات على الباب، وعندما لم ينفتح علمت أن الطارق شخص غير "نيفين"، إنه "جميل" إذًا. انفتح الباب ببطء، تلاقت عيني الغاضبة بعينيه المرتعدتين. وقف على بعد خطوات يطرقع أصابعه كما هي عادته البغيضة، لمع جبينه بقطرات عرق لا أدري كيف جرؤ على الإتيان به في فبراير!

دنوت منه وأنا أحس نفسي كبالون ممتلىء بالهواء عندما يقترب من مصدر اللهب.



- لماذا طردت "جميل" يا "ماهر"؟!

وقفتُ مغطيًا وجهي بقبضتين في وضع الاستعداد. البدايات الجيدة هي الطريقة الأضمن لنهايات جيدة، لذلك فكل شيء يبدأ من وقفة سليمة تُأهبني للدفاع والهجوم في الوقت نفسه. يدي اليمنى خلف اليسرى، ركبتاي مائلتان قليلًا وتحملان وزن جسدي موزعًا بالتساوي بينهما، مرفقي أسفل اليدين، مسترخيًا بعد أخذ نفسٍ عميقٍ، وقبضتين مغلقتين بإحكام.. والآن أبدأ.

أطلقت زفيرًا حادًا مسددًا اللكمة الأولى، شرد ذهني للحظات فاستغلها "شريف" وسدد لكمة قوية إلى وجهي، انسحبتُ رافعًا كلتا يديّ لأحمي وجهي، تبًا، يا له من مُنازل صلد، والوقوف أمامه كالوقوف أمام تريلا على الطريق السريع لن تفهم ما يحدث إلا بعد أن تساوي جسدك بالأرض.

حمدت الله أن هذا مجرد تمرين بين صديقين وليس شجارًا حقيقيًا!

كان أملي الوحيد في الفوز بهذه الجولة هو الوصول إليه من جانبه أو خلفه. هتف "شريف" مسددًا إلى جانب وجهي ضربة "الهوك" بقبضة يده المائلة بزاوية تسعين درجة:

- لماذا طردته يا "ماهر"؟!

لا يجب التركيزعلى القوة فحسب. فالقوة وحدها لا تكفي للفوز، هناك أيضًا السرعة، التحمل، التوازن، والدقة.

انقضضت عليه بلكمة رباعية. بدأتها باليمنى ثم اليسرى، ثم اليمنى فاليسرى.

- "ماهر" اهدأ!

وقفنا متواجهين ينظر أحدنا إلى الآخر. تتسارع أنفاسي بشدة. هجمت عليه برباعية أخرى لكنه أوقفها قبل أن تبدأ وأنزلني أرضًا. وكزني في كتفي هاتفًا:

- توقف عن ذلك ستؤذيني وتؤذي نفسك.

بقيت جالسًا في المكان الذي سقطت فيه داخل حلبة الملاكمة. خلعت عني القفازين، ومررت أصابعي العشرة في شعري بعصبية لأُهذب خصلاته الملتصقة بجبيني. جلس "شريف" قبالتي وهو ينزع قفازيه قائلًا:

- "ماهر" يجب أن تتوقف عن تفريغ غضبك في كل ما حولك. أثق أنك ستتخطى هذه الأزمة كما تخطيت كل المشاكل التي واجهتك من قبل.

امتزجت كلماتي بلهاثي:

- كيف سأتجاوز ذلك برأيك؟ إن لم أعد للرجل ماله في أقرب وقت سيقتلني يا "شريف".

بدا "شريف" كما عهدته منذ أن بدأت صداقتنا في الثانوية. يظن أن الأشرار يعيشون في عالم منفصل عن عالمنا. لن يمسنا بطشهم. الأشياء البغيضة تحدث للآخرين فقط. أما هو وكل من يحبهم ففي مأمن طالما لا

يفارقون ظل الحائط! هتف "شريف" مستنكرًا:

- ليس إلى هذه الدرجة، إنه يهددك ليثير خوفك فحسب. لسنا في غابة يا "ماهر".

قلت بمرارة غلبتني:

- معك حق يا "شريف" لسنا في غابة، بل أسوأ من غابة. نحن في الدنيا يا صديقي.

سكتَ ولم يُعقِّب، ربما أدرك أن الأمر هذه المرة بالغ الجدية. نهضتُ فعاجلني بقوله:

- انتظر سأوصلك بسيارتي، ثم تعود لتأخذ سيارتك في الغد.

شكرت اهتمامه في نفسي بكلمات لم أنطقها، هكذا تعودت من "شريف". فهو الشخص الوحيد على ظهر هذه الأرض الذي يوليني كل هذا الاهتمام. قلت وأنا أتحسس بطني، مقاومًا ألمًا حارقًا يندلع بداخلها:

- لا داعي.

توقفت لأنظر إلى كدمة حمراء في ساعده، أشرت إليها برأسي قائلًا:

- هل أنا من فعل ذلك؟

تحسسها ضاحكًا وهو يتفاخر:

- بل نحلة، صديقك يجذب كل ما ينتهي بتاء التأنيث.

وبينما يرتدي معطفه سقط من جيبه علبة مخملية حمراء، تدحرجت بالقرب من قدمي فالتقطتها. استرقت إلى وجهه نظرة وأنا أفتحها لأجد قرطًا ذهبيًا تتدلى منه لؤلؤة صغيرة، نظرت إليه ثانية فرأيت الاضطراب يعبث بقسماته فابتسمت ساخرًا وأعطيته إياها وأنا أمازحه:

- أتمنى أن يعجب نحلتك، لكن لا تنسَ أن النحلة تحمل شهدها وإبرتها في الجسد نفسه.



ألقيت بجسدي خلف عجلة القيادة وانطلقت بالسيارة، سحقًا لهذا الألم الذي أصبح غير محتمل! عثرت على صيدلية هرعت إليها وطلبت دوائي، تجرعت كوبًا من الماء يعوم فيه قرصين منه. ما إن عدت إلى موضع السيارة حتى وجدت المقطورة تسحبها أمام عيني. هرولت خلفها مناديًا، توسلت إلى الشرطي، أخرجت له مالًا من حافظتي، هددته.. لكن لم يفلح أي من ذلك في تغيير نهاية يومي.

لم أكد أضع المفتاح في باب شقتي حتى انفتح باب الشقة المقابلة ليهرع جاري "الحاوي" منها باندفاع، بوجه ممتقع لا يمت بصلة إلى الوجه البشوش الذي رأيته اليوم في الحديقة من نافذة مكتبي. ما إن رآني حتى تمسَّك بي وهو يصيح بجنون:

- لا أريد أن أنام، لا أريد أن أنام، أنقذني منهم أرجوك، أرجوك، لا أريد أن أنام.

أمسكتُ به كي لا يهرب، اندفعتْ زوجته الباكية مع أحد جيراننا نحوه ليجروه معي جرًا إلى الداخل، قيدناه بالمقعد، كشفنا عن ذراعه وهو لا يزال يصرخ ويحاول الهرب، حقنته زوجته بالمنوم ثم جلست عند قدميه تضم إليها جسده، وتسكن رجفاته. انصرفتُ عندما لم أعد أستطيع تحمل صوت بكائها.

دخلتُ إلى شقتي، ألقيت نظرة أسفل باب الغرفة المغلقة لأجد الأنوار لا تزال مُضاءة، وصوت التلفاز يخترق الباب ليصل إلى مسامعي. غاصت قدماي في براز "تالا" فخلعتُ الحذاء والشراب على أعتاب غرفتي، والتي لم تكن أكثر نظافة من باقي الغرف.

اقتربت من الكومود لأضع ساعتي فوقه. فاخترق قدمي شظية من الكوب الزجاجي الذي أسقطته في الصباح، رأيت بقعة من الدماء تلوث الأرض، وعند هذه اللحظة فقد قدرتي على الاحتمال، فوقفت أمام النافذة المفتوحة وأنا أطلق صيحة عالية شاركتني فيها كل ذرة في جسدي.



(٣)

آسية

- هل تعرفون ما هو "القليس"؟! أي أحد؟!

حسنًا. إنه اسم المعبد الذي بناه "أبرهة الحبشي". وحاول أن يجر العرب إلى الحج إليه بدلًا من الكعبة.

ولما فشل "القليس" في جذب الحُجاج، وتمسكوا بكعبتهم، توجه إلى مكة لهدمها.

فما أشبهنا اليوم بـ"أبرهة". نفعل بأنفسنا فِعلته فينا. فنحن لا نتوقف عن إنشاء معابد وهمية لأنفسنا نحج إليها، وتغذيها معتقداتنا الخاطئة. للأسف أصبحنا نصدق الكذبة التي نخترعها بأنفسنا أو حتى تلك التي يحيكها الأخرون أمام أعيننا.

نحن لم نبن بداخل عقولنا عشرات من "القليس" فحسب، بل حفزنا كل مشاعرنا وطاقتنا لحمايتها والدفاع عنها؛ الآن لا يحرك أعداؤنا أصبعًا واحدًا لهدم الكعبة، لأنه ببساطة لم يعد ذلك مهمًا!

توقفتُ عن الكلام لألتقط أنفاسي، وأترك لتلاميذ صفي مساحة من الصمت للتفكير فيما قلت. قال "حسن" تلميذي المُفضل ـ ولكل مُدرس تلميذ مُفضل يسعد دومًا بالتحاور معه ـ بصوت شغفه الأمل:

- مس "آسية" هل هناك طريقة لهدم "القليس". أقصد طريقة لهدم معتقداتنا الخاطئة التي شبهتها بـ"القليس"؟

افتر ثغري عن ابتسامة مشجعة رغم علمي أنه لن يراها. وأجبته:

- بناء، هدم.. كل لفظ له ضد في اللغة لا أجد ما يمنع وجوده في الواقع يا "حسن".

بلغ مسامعي هتاف "أمجد". الطالب الجديد الذي أخذ على عاتقه مهمة الاعتراض على كل ما أقوله. قال منفعلًا:

- هراء. منذ أن أتيتَ إلى صفكِ وأنا أسمعكِ وأنتِ تحاولين إعطاءنا مخدرًا فحسب. لا أرى فارقًا بينك وبين مروج المخدرات وبائع الخمر. لكن دعيني أخبركِ عن الكعبة الموجودة على أرض الواقع والتي تريدين منا هدم "القليس" لنحج إليها.

دوى صوت مقعده يرتطم بالأرض. بدا مهتاجًا أكثر من يومه الأول في المدرسة. زمجر قائلًا:

- نحن عميان. بل أسوأ نحن مجرد هواء. لا نرى أحدًا ولا أحد يرانا. نحن لا شيء في عالم يعتمد فيه كل شيء على النظر.

لم أفقد رباطة جأشي. فقد اعتدت على ثورات الغضب التي تتملك بعض طلابي الجدد. حتى وإن كان "أمجد" أكثرهم قسوة وعنادًا. فهو لا يتوقف عن ربط كل ما أقوله بمشكلته الخاصة. قلت ببساطة:

- إذا أردت أن تكون "لا شيء" فهذا شأنك يا "أمجد". لكن لا تطالب الجميع هنا أن يكونوا مثلك.

استطرد ثائرًا دون أن يأبه بكلماتي:

- لن نعيش أبدًا حياة طبيعية كما يعيش الناس بالخارج. لن نحقق أي شيء. لن نستمتع. لن يحبنا أحد ولن يكون لنا عمل وبيت وزوجة. لقد كُتبت شهادة وفاة كل منا في اليوم والساعة والدقيقة التي فقد فيها بصره.

كان يصر على أن تكون له الكلمة الأخيرة. لكنني قلت ولا يزال صوتي هادئًا. رغم إدراكي للاضطراب الذي ساد قاعة الدرس:

- كل شيء يتوقف على ما تؤمن به في قلبك يا "أمجد". إن كنت تؤمن أن كل ذلك لن يتحقق فلن يتحقق. ولن ترضيك البدائل.

- لن يتحقق. لن يتحقق.

انفجر في البكاء كطفل في العاشرة رغم سنوات عمره الخمس عشرة.

يدق الأرض بحذائه ويتخبط في كل ما حوله. ناديتُ إحدى المشرفات فدخلت مسرعة، ثم قالت لي:

- مس "آسية" لا تقلقي سأحل الأمر، "أمجد" هيا معي، لا تعاند، هيا.

تخافت صوته في الممر حتى اختفى تمامًا، لكنه حمل معه السَكينة وترك لنا جوًا مشحونًا بالتوتر. لم أغضب منه، بل امتلأ قلبي نحوه بالعطف، ليس من السهل التعامل مع شاب مراهق في مثل عمره، أما الأصعب فهو التعامل مع مراهق كفيف رافض لواقعه، ويحمل بداخله كل هذا القدر من الحقد الغضب على الحياة بأسرها.

صفَّقتُ وأنا أحاول استدعاء نبرة مرحة، ثم قلتُ:

- ذكروني ماذا كان سؤال الأمس؟

اعتدتُ أن أوجه إلى طلابي في نهاية الحصة سؤالًا غير اعتيادي، وأتركهم حتى موعد الحصة التالية ليبحثوا عن الجواب. مرت لحظات من الصمت المميت قبل أن تتطوع إحدى طالباتي للإجابة بغير حماس:

- "ما هي الطريقة التي لا يستطيع الإنسان بها قتل نفسه؟"

أردفتُ بخفة:

- نعم، هل توصل أحدكم للجواب؟

أهداني "حسن" بعضًا من الحماس وهو يقول:

- أنا عرفت الجواب، لا يمكن للإنسان أن يقتل نفسه عن طريق كتم أنفاسه.

صفقت عاليًا وأنا أهتف بمرح حقيقي هذه المرة:

- أحسنت يا "حسن".

ثم وجهت حديثي إلى عشرين طالبًا وطالبة ضمهم صفي:

- لا يمكنكم حبس أنفاسكم حتى الموت، وبالمِثل لا يمكنكم خنق أحلامكم، ستظل هناك تسبح في رؤوسكم وقلوبكم حتى وإن لم تعترفوا بها، حتى وإن كانت تصطدم مباشرة مع الواقع، فلا تتجاهلوها، التفتوا

إليها واسمعوا ماذا تريد أن تقول لكم.



كنت أتابع بتركيز فيلمي الكرتوني المفضل على جهازي اللوحي عندما ألقت "شهد" بجسدها جواري على الأريكة، وضعَتْ فوق ساقي وعاءً من الفشار الساخن كانت قد نهضت لإعداده، التقطتُ حفنة ملء كفي وبدأتُ على الفور في التهامها، أتاني صوت "شهد" المستنكر:

- أرجوكِ يا "آسية" فلتختاري فيلمًا آخر للشاهده.

لا يوجد كلمات محظورة في الحديث بيني وبين "شهد". صداقتنا تمتد لسنوات قليلة لكنها كانت كافية لإنشاء صداقة عميقة يحتاج الآخرون سنوات للفوز بمثلها. ورغم ذلك لا أملك سوى أن أهرب إلى قوقعتي أحيانًا، أغلقها على نفسي جيدًا ولا أسمح لأحد بالدخول، بضع ساعات أو أيام ثم أخرج بنفسي وقد أعدتُ شحن بطارية الحياة بداخلي مرة أخرى. في بداية صداقتنا كانت تتعجب من استخدامي لكلمات مثل "أرى، أشاهد، أنظر".. لعلها تبدو لأول وهلة مفردات بلا معنى لفتاة كفيفة مثلي، لكنني أومن أن جزءًا من النظر للشيء متمثل في الإحساس به.

الجميع ينظر إلى ذات السماء، لكن لا يرى الجميع الشيء نفسه، هناك من يرى في الجزء المظلم منها الوحدة أو الخوف، أو الموت، وهنالك من تهتدي عيناه إلى النجوم، فيرى الأمل ينبت بين اليأس، والحياة تضيء رغم ركام الموت.

ابتسمتُ قائلة وأنا ألقي بثلاث حبات من الفشار في فمي:

- هل تعرفين أن أول سندريلا في التاريخ لم تكن ترتدي حذاءً زجاجيًا؟!

أجابتني بفتور وهي تدس يدها في وعاء الفشار لتصطدم بيدي:

- حقًا.

- نعم، حدث ذلك نتيجة خطأ في الترجمة عن اللغة الفرنسية، فكلمتي حديد وزجاج متشابهتان في النطق، الفرق بينهما في الكتابة فقط، ولأن الزجاج أكثر رومانسية من الحديد لم يهتم أحد بتصويب الخطأ.

- هلا غيرتِ الفيلم؟!

زفرت أقول وأنا أمرر أصابعي فوق شاشة جهازي اللوحي الناطق:

- "شهد" أنتِ باردة جدًا.

ضحكت قائلة:

- وأنتِ يا حبيبتي حالمة جدًا. رغم سنوات عمرك الست والعشرين ما زلتِ تعيشين في عالم والت ديزني الأكثر وردية من حقيبة يدك التي اشتريتها معي الأسبوع الماضي.

قاطعتها مصححة وأنا أرفع سبابتي:

- الخمس والعشرين وإحدى عشر شهرًا وستة أيام.

- من الخارج نعم، لكن من الداخل توقف نموك عند عمر الثانية عشرة.

أصابت عبارتها وترًا حساسًا في نفسي، كانت صادقة في كل حرف قالته.

ففي عمر الثانية عشرة فقدتُ كل شيء، فقدتُ حياتي، وعائلتي.. وبصري، وبدأتُ حياة جديدة كجنين يأتي للحياة للمرة الأولى، إلا أنه يحمل ذكريات حياة سابقة عاشها، ذكريات يسترجع مرارتها بين الحين والآخر. قالت وأنا أظن أنها فعلت لتغير الموضوع:

- لم تخبريني ماذا حدث مع "أمجد".

بدأ عرض الفيلم الذي اخترته، أجبتُ:

- اتصلوا بأبيه، جاء وأخذه.. لكن أتعرفين، شعرت بعطف كبير نحوه عندما عنَّفه والده أمام الجميع كما لو كان طفلًا صغيرًا. أما "أمجد" الذي اعتدت مشاغباته في الصف فلم ينطق بحرف واحد.

- أعتقد أن هذا الطالب سيتعبك كثيرًا يا "آسية". برأيي تخلصي منه في الغد واطلبي نقله إلى صف آخر.

عندما قررتُ منذ عامين العمل كمُدرسة متطوعة في مدرسة المكفوفين لم أظن أنني سأستغرق فيه بهذا الشكل، كنت أتوقع عملًا رتيبًا معتادًا، مُدرسة لغة عربية كما أهَّلتني دراستي بكلية التربية، لكن أول مدرسة

قدّمت فيها أخبرتني السكرتيرة بإعلان غريب لطلب وظيفة، طلب غير معتاد على أي مدرسة للمكفوفين أو لغيرهم، قالت لي "مطلوب مُدرسة في مادة الحياة"!

وعندما تحدثت مع مديرة المدرسة، فهمتُ أنها تُؤمن أن المراهقين في هذا السن لا يحتاجون فحسب إلى المواد المقررة في كل المدارس، بل يحتاجون أكثر شيء إلى قدوة، إلى مُرشد، مصباح ينير لهم الطريق، كالمنارة التي تهدي السفن في عرض البحر. أعجبتني الفكرة غير الاعتيادية وسحبت استمارة تقدمي لشغل عمل مدرسة لغة عربية وقدمت بدلًا منها استمـــارة للعمل كمدرسة في مادة الحياة.

أخضعتني مديرة المدرسة لاختبارات عدة أنا وقلة من المتقدمين لشغل الوظيفة، تفوقت عليهم جميعًا، ومنذ ذلك الحين لم أندم لحظة على اختياري رغم الصعوبات الكثيرة والتحديات التي تواجهني مع طلابي.

قلت لـ"شهد" بثقة:

- لن أواجه مشكلة معه، أعرف كيف أروّضه.

- قلت ذلك من أجل صالحك ليس إلا.

اتسعت ابتسامتي وأنا ألف ذراعي حول رقبتها، منحتها قبلة فوق وجنتها وأنا أهتف من أعماق قلبي:

- أعلم يا "شهد"، فأنتِ أروع صديقة في العالم.

- هلا تركتني أشاهد الفيلم من فضلك.

وكزت كتفها ضاحكة:

- ألم أقل لكِ، باردة.

في منتصف عرض الفيلم نهضتُ لأعد كوبين من الشاي بالحليب، التفت أصابعي حول فوهة الكوب وأنا أصب الشاي بيدي الأخرى، وما إن ارتفع السائل وشعرتُ بسخونته، وسمعت الصوت الرتيب الذي تغير ما إن وصل إلى فوهة الكوب حتى علمت أنه امتلأ إلى القدر الذي أريد؛ فتوقفت

عن صب المزيد.. التقطتُ العلبة الثانية من الرف العلوي الأيمن وأضفت ملعقتَي سكر في كوبي، ونصف ملعقة في كوب "شهد". ثم عدت إلى غرفة المعيشة.

ما إن رشفت من كوبي حتى صحت متذمرة. أسرعت "شهد" بإحضار كأس من الماء وهي تتمتم:

- أعتذر يا "آسية". لم أنتبه وأبدلت مكان علبة السكر بعلبة الملح.

هتفت بها بعد أن تجرعت كوب الماء كاملًا:

- لا مشكلة.

عدنا إلى متابعة الفيلم بعد أن أعدت "شهد" كوبين آخرين من الشاي بالحليب. بدون ملح هذه المرة. انتهى الفيلم في تمام السابعة. وعندما استعدت "شهد" للمغادرة سألتها باستنكار:

- لماذا ترحلين مبكرًا اليوم؟ اتصلي بوالدتكِ وأخبريها أنكِ ستبقين معي لحين عودة خالي إلى البيت. لن تعارض؛ أعرف ذلك.

قالت وهي تفتح الباب:

- يجب أن أشتري بعض الأغراض، فلن أتمكن من مغادرة البيت في الغد. هل نسيتِ أن غدًا هو الحادي عشر من فبراير؟!

أجبتها وقد غمرني الحزن:

- وهل يمكن نسيان هذا التاريخ؟ إنه الذكرى السادسة لليوم الذي اختفى فيه الحبر من الكتب!



(٤)

ماهر

اخترقت رنة الهاتف أحلامي وانتزعتني منها، نفضتُ عني صديقة أختي البقية الباقية من آثار الحلم وهي تسكب في أذني تقريرها الأسبوعي عن "أروى". عبثتْ كلماتها بعقلي فامتلأ صدري بالغضب، انتزعت نفسي من الفراش وانقضضت على غرفة "أروى". فلما لم تصلني استجابة على طرقاتي فتحتُ الباب الذي كشف أسفله عن أشعة الشمس التي تملأ أركان الغرفة. لم ترفع عينيها صوبي، لم تبدِ أي ردة فعل على الإطلاق وكأنني ذبابة عبرت غرفتها!

استبد بي الغضب أكثر فنفَّثت عنه:

- "أروى" لماذا لم تذهبي إلى درس التاريخ طوال الأسبوع؟

لستُ متفائلًا بما يكفي لأنتظر منها إجابة شافية مباشرة، أمرتها أن تترك هاتفها لتنظر لي، وبالطبع لم أكن أحمق كذلك لأنتظر منها استجابة فورية.

تظاهرتْ باستكمال المذاكرة، وهي تقرأ من جهازها اللوحي:

- "وأثار عقول العلماء هذا السؤال لعــدة قــرون، مــاذا سيجني

العالم إن تمكنا يومًا من ترجمة مخطوطة "فوينيتش" التي فشل الجمع في فهم اللغة التي كُتبت بها، والتي يظن العلماء أنها.... ".

قاطعتها وأنا أعيد على مسامعها محاضرتي المحفوظة عن حاجتها لبذل جهد أكبر إن كانت تريد الالتحاق بكلية محترمة. ومنعتُ نفسي بصعوبة من الصراخ فيها مُطالبًا إياها أن ترحمني، فلم أعد قادرًا على تحمل المزيد من الأعباء النفسية.

التفتُ إلى المرآة فرأيت رجلًا آخر ينظر إليّ، تحيط بعينيه السوداوين حلقتان من الإرهاق، يتهدل كتفاه فوق قامة طويلة لم تعد منتصبة كما كانت. دنوتُ من المرآة فرمقني الرجل المحبوس داخلها بنظرات بلا معنى، كأنه ينتظر مني شيئًا ما، شيء يعجز عقلي عن إدراكه.

- إن كنت قلقًا على جاذبيتك فاطمئن أنت ما زلت تحتفظ بها أخي العزيز، وإن عرفت ما تقوله عنك جاسوستك دون خجل فسيذهلك ذلك.

قاعدة عسكرية: "لا يجب أن نفتح أكثر من جبهة في الوقت نفسه"، لذلك استدرت وأعدت عليها سؤالي عن سبب امتناعها عن حضور دروس التاريخ، كانت تتوسط فراشها، تحتضن هاتفها بين كفيها، وترمقني بعيون عابثة كبسمتها وهي تجيب سؤالي بسؤال:

- ألم تخبرك جاسوستك؟!

أردفتُ بإصرار وأنا أدنو منها:

- أريد أن أسمع منكِ.

لوَّحت بكفها وهي تريح ظهرها إلى الوسادة، وتقول باقتضاب:

- هو الذي طردني.

عاجلتها بتحدٍّ:

- لأنك قمتِ بشتمه.

اعترضتْ بقوة:

- لم أشتمه عبثًا، لقد استحقها.

- لم يخطئ المدرس في حقك، أنتِ التي تطاولتِ عليه.

- إنه مجرد ببغاء أحسنت الوزارة تربيته.

انعقد حاجباي وأنا أحذرها:

- "أروى" لا تُغطي خطأكِ بتبرير أجوف.

أردفتْ دون أن تولي تحذيري أي اهتمام:

- ويريد مني أن أكون نسخة منه، وأن أحشو رأسي بالهراء، تصور يريد مني أن أردد أن أول كلمات لبشري على سطح القمر هي كلمات "نيل أرمسترونج" التي قال فيها: "خطوة صغيرة لإنسان، قفزة هائلة للإنسانية".

ساد الصمت للحظات ثم هتفت مستنكرًا:

- ولكنها بالفعل أول كلمات للبشر على سطح القمر.

رفعت رأسها لأعلى وقالت باستهجان:

- ببغاء آخر يا ربي.

- "أروى" إلزمي الأدب.

بعناد لا يفرق كثيرًا عن عناد الأطفال هتفتْ:

- بل كلمات "باز ألدرين" رائد الفضاء الذي رافق "نيل أرمسترونج" في المركبة الفضائية، قال مشيرًا لضوء لوحة التحكم عندما لامست المركبة سطح القمر: "Contact Light أو ضوء اتصال".. لماذا تُهملون التفاصيل؟

غمرني شعور فارس سقط عن حصانه أرضًا في منتصف السباق، فارس يعاني من القولون العصبي! مددتُ يدي لأمسد موضع الألم وأنا ألوح بسبابة يدي الأخرى محذرًا:

- سأتصل بالمدرس لتعتذري له، ولا أريد المزيد من مشكلاتك يا "أروى".

رفعتْ هاتفها والتقطتْ لي صورة، وقبل أن أعنفها نظرتْ إلى شاشته وقالت وكأنها تحدث نفسها:

- ٥٠% غضب، ٣٠% عصبية، ١٥% ألم، ٥% حزن.

- ماذا تفعلين؟!

- أحلل تعبيرات وجهك عن طريق تطبيق جديد قمت بتحميله.

لعلي لست أخًا جيدًا بما يكفي، لكنني أبذل ما بوسعي لأكون هذا الأخ، ولا يبدو أن "أروى" تشعر بجهدي الكبير معها، دائمًا باردة، وبعيدة، تصر على التصرف كالأطفال، آه يا "أروى"، متى ستكبرين ليخف عني الحمل.

- اتركي هذا وأخبريني ألم ترَيْ نظارتي الشمسية الجديدة؟

قالت وهي تشير لما حولها من فوضى:

- في هذا البيت لو ضاعت بقرة فلن نستطيع العثور عليها!

قاومت رغبة عارمة في أن أجرها من شعرها إلى الأرض. استدرت لأبحث عن دوائي الذي لا أذكر أين وضعته الليلة الماضية، لكنني درت على أعقابي فجأة وأنا أسألها:

- بالمناسبة أين "تالا"؟! منذ يومين لم توقظني بلعابها.

تقوقعتْ على شاشة هاتفها وأجابت بلامبالاة جعلت الدماء تتفجر في رأسي:

- إنه موسم التزاوج، فسمحت لها بالخروج.

كظمت غيظًا عبَّر عن نفسه بشكل آخر في قولوني، قلت:

- لماذا لم تخبريني لآخذها إلى محل القطط.

ببرود كالثلج همهمتْ:

- لماذا تريد أن تتعدى على مساحتها الخاصة يا "ماهر"؟!

صفقت الباب من خلفي بعد أن أرسلت لها تحذيرًا صارمًا:

- لا خروج من البيت، فاليوم هو الذكرى السادسة لاختفاء الحبر من الكتب!



كم عمرك؟!

دائمًا ما يجيب الناس على هذا السؤال إجابة خاطئة، إن أردت أن أجيب مثلهم لقلتُ ستة وعشرين عامًا، أما إن أردت أن أعطي جوابًا صادقًا لقلت أن عمري هو عدد الآلام والأحزان التي ما زلت أذكرها، وهي كثيرة بالمناسبة.

لدي نقص حاد في عدد اللحظات السعيدة عن المعدل الطبيعي لإنسان في مثل عمري، لدينا أجهزة تقيس انخفاض الضغط والسكر فلماذا لا يكون لدينا أجهزة تكشف عن انخفاض معدل السعادة؟ وعندئذ تتجه شركات الأدوية إلى صنع عقار السعادة، ويزيد عدد أقسام كلية الطب واحدًا، ونرى لافتة كبيرة تزين باب أحد العيادات "دكتور فلان أخصائي في الضحك"!

- مستر "ماهر" ألن تذهب إلى منزلك؟! تبقى ساعة واحدة على حظر التجول.

أغلقتُ نافذة دردشة مع امرأة لا أعرفها ولا تعرفني وليس لدينا قاسم مشترك نتحدث عنه! فقط الرغبة في الهرب التي تجعلني أتظاهر أنني شخص مختلف لأقضي سويعات في الحديث مع امرأة تكذب، وتعرف أنني أيضًا أكذب.

رفعتُ إلى "نيفين" رأسا مثقلًا بالأمنيات، وقلت:

- سأغادر بعد قليل، ألم يتصل أحد من شركة "بيانكو"؟!

هزت رأسها نفيًا ولم تزد، فازددتُ امتعاضًا. استندت إلى ظهر المقعد وشبكتُ يديَ خلف رأسي وسألتُ سكرتيرتي سؤالًا باغتها:

- لماذا لم تتزوجي حتى الآن؟ لقد تجاوزتِ الثلاثين، أليس كذلك؟

امتزج الارتباك في عينيها بالضيق من سؤالي الذي لا أعلم لماذا ألقيته على مسامعها، علَّها الرغبة في التمتع بصحبة لبعض الوقت، أو الانخراط في حديث لا يتعلق بحياتي. أجابت بعد تردد:

- تزوجتُ ثم طُلقتُ.

مِنْ وراء حجاب

اعترض طريقه جراب "حاوي" جعله في مواجهة مباشرة مع كل جراحات الماضي، فتحه فوجد فيه ورقة حب، وورقة موت، وكتابًا لم يقرأه أحد!

فهل سيتمكن من كشف الخدعة، وإعادة الحبر الذي اختفى من الكتب لإنقاذ الجميع.. أم سيصير هو نفسه أحد الحواة؟!

غلاف : إسلام مجاهد

